

دراسة تحليلية في دور المعادلة الاجتماعية في تحقيق التنمية من منظور

المفكر مالك بن نبي

*Analytical Study on the Role of the Social Equation in Achieving
Development from the Perspective of the Thinker Malek Bennabi*

قادة بحيري¹، عبد الرحمن بركاني²

Kada BAHIRI¹, Abderrahmane BERKANI²

¹ جامعة جيلالي ليايس، سيدي بلعباس، (الجزائر)، k.bahiri@yahoo.fr

² جامعة مصطفى اسطembولي، معسكر، (الجزائر)، berka.abderrahmane@yahoo.com

تاريخ النشر: 2026/06/11

تاريخ القبول: 2026/06/01

تاريخ الإرسال: 2025/09/30

ملخص:

تهدف هذه الدراسة الى معالجة مسألة التنمية بشقيها المادي والروحي عند مالك بن نبي من خلال معادلة اجتماعية يكون فيها للإنسان الدور الجوهرى في صياغة وصناعة التنمية. وخلصت الدراسة الى ان تحقيق التنمية لا يتحقق عن طريق الاقتباس والاستهلاك ولكن عن طريق توليف عناصر الحضارة المتكونة من الإنسان والتراب والوقت.

الكلمات المفتاحية: إنسان، تنمية، توجيه، حضارة

Abstract:

This study aims to address the issue of development, both material and spiritual, according to Malek Bennabi, through a social equation in which humans play a fundamental role in formulating and creating development. The study concludes that development is not achieved through borrowing and consumption, but rather through a synthesis of the elements of civilization consisting of humans, soil, and time.

Keywords: being human; development; guidance; civilization.

* المؤلف المرسل.

1. مقدمة

التنمية في فكر مالك بن نبي هي جزء من الحضارة، ولا يمكن البتة ان تتجزأ او تنفصل عنها ذلك ان الحضارة تتكون من قسمين، يهتم القسم الأول بالجانب المعنوي وأما القسم الثاني فينصرف الى المادة. ومهما يكن من امر فإن الإقتصاد مهما كانت توعيته المذهبية، ما هو الا تجسيم للحضارة، على شرط أن تحدد هذه الحضارة كمجموعة الشروط المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يقدم جميع الضمانات الاجتماعية لكل فرد يعيش فيه. ومعنى ذلك ان مسألة التنمية عند مالك بن نبي تبقى مرتبطة ارتباطا وثيقا بمشكلة الحضارة.

ينطلق مالك بن نبي رحمه الله في علاجه لمسألة التنمية من مسلمة جوهرية مفادها ان التنمية ماهي الا الوجه الخارجي للحضارة. ومعنى ذلك أن مشكلة المسلم هي مشكلة حضارة لأنه فقدتها او هي التي تخلصت منه لأنه لم يعد يحمل بذور بقائه. وتكمن هذه البذور في تلك الفضائل التي حملها أسلافه كالإخلاص، والتفاني، والالتقان وكلها صفات تجعل من الإنسان انسانا له رسالة نبيلة. والتنمية في فكر مالك بن نبي لا تكمن في تكديس المنتجات والاشياء والأفكار ولكنها تكمن في صياغة مخطط دقيق ومنهج صادق للخروج من التخلف. ومعروف ان ظاهرة التكديس أدت بالعالم الإسلامي الى التمدن لا الى الحضارة. والفرق كبير بين التمدن والحضارة. فالتمدن يمكن صناعته في لحظة معينة من الزمن، يكفي ان يردتي الواحد منا ملابس فاخرة ونظارات غالية وهاتف نقال من النوع الرفيع واقتناء سيارة فخمة والتحدث بلغة الغير فيصبح متمدن. وللأسف الشديد لازالت هذه الحالة المرضية تسيطر على افراد المجتمع الإسلامي وهذا الوجه المتخلف الكئيب مازال حيا في جيلنا الحاضر، نصادفه في المظهر الرقيق البريء الذي يتميز به فلاحنا الوديع القاعد، او راعينا المترحل، المتقشف المضيايف ويضيف مالك بن نبي " كما نصادفه في المظهر الكاذب

الذي يتخذ ابن أصحاب "المليارات" نصف المتعلم، الذي انطبع في الظاهر بجميع أشكال الحياة الحديثة، فأكسبه "مليار" أبيه وشهادة "البكالوريا" مظهر الإنسان العصري، بينما تحمل أخلاقه وميوله وأفكاره صورة "إنسان ما بعد الموحدين"¹. وتأسيسا لما سبق يمكن طرح الإشكالية التالية: كيف يمكن تحقيق التنمية الحضارية في فكر مالك بن نبي من خلال تفعيل المعادلة الاجتماعية وربط الجانب المادي بالجانب القيمي؟

التساؤلات الفرعية:

- ما المقصود بالتنمية في فكر مالك بن نبي؟
- ما طبيعة العلاقة بين الجانب المادي والجانب المعنوي في تحقيق التنمية؟
- كيف تسهم المعادلة الاجتماعية في تحقيق النهضة الحضارية؟
- ما دور توجيه الثقافة والعمل ورأس المال في إنجاح المشروع التنموي؟

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى:

- إبراز مفهوم التنمية في فكر مالك بن نبي وربطه بمشكلة الحضارة.
- تحليل العلاقة بين البعدين المادي والمعنوي في تحقيق التنمية.
- توضيح دور المعادلة الاجتماعية في بناء المشروع الحضاري.
- بيان أهمية توجيه الثقافة والعمل ورأس المال في إنجاح التنمية.
- الكشف عن أسباب تعثر التنمية في العالم الإسلامي من منظور مالك بن نبي.

منهج الدراسة :

اعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي الوصفي، وذلك من خلال تحليل أفكار مالك بن نبي المتعلقة بالتنمية والحضارة والمعادلة الاجتماعية.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في كونها تعالج قضية التنمية من منظور حضاري وفكري عند مالك بن نبي، الذي يعد من أبرز المفكرين الذين ربطوا التنمية بالإنسان والقيم والثقافة، وليس بالمؤشرات الاقتصادية فقط. كما تبرز الدراسة أهمية المعادلة الاجتماعية في تحقيق النهضة، خاصة في ظل التحديات التي تواجه المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

الدراسات السابقة:

تناولت عدة دراسات فكر مالك بن نبي التنموي والحضاري من زوايا مختلفة. فقد ركزت بعض الدراسات على مفهوم الحضارة وعلاقته بشروط النهضة، في حين اهتمت دراسات أخرى بالجانب الثقافي والفكري في مشروعه الإصلاحية. وتختلف الدراسة الحالية عن الدراسات السابقة في تركيزها على دور المعادلة الاجتماعية في تحقيق التنمية، وربطها بين توجيه الثقافة والعمل ورأس المال باعتبارها آليات عملية لتحقيق النهضة الحضارية.

مجتمع الدراسة:

يتمثل مجتمع الدراسة في مؤلفات مالك بن نبي الفكرية المرتبطة بمشكلة الحضارة والتنمية.

عينة الدراسة:

اعتمدت الدراسة بصورة أساسية على المؤلفات التالية:

- ❖ مشكلة الثقافة
- ❖ المسلم في عالم الاقتصاد
- ❖ شروط النهضة
- ❖ مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي
- ❖ الفكرة الإفريقية الآسيوية.

2. علاقة الجانب المادي والجانب المعنوي في تفعيل التنمية

من خلال استقراء افكار مالك بن نبي في مشكلات الحضارة يمكن الجزم والتأكيد على وجود علاقة متينة بين الجانب المادي والجانب المعنوي ويظهر ذلك في كل ما جاء في كتاباته وخاصة في كتابه الموسوم بـ المسلم في عالم الإقتصاد فهو يقول "إن الإقتصاد مهما كانت توعيته المذهبية، هو تجسيم لحضارة، على شرط أن نحددها كمجموعة الشروط المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يقدم جميع الضمانات الاجتماعية لكل فرد يعيش فيه"². ومعنى ذلك ان كل عملية تنموية اقتصادية يجب ان تأخذ في حسابها الإنسان الذي يحمل هذين الجانبين وهو ما يطلق عليه مالك بن نبي الإنسان المتكيف. أي ذلك الإنسان الذي انطبع بالأخلاق والقيم والفاعلية. وكل عملية تنموية لتأخذ بعين الاعتبار الإنسان المكيف تبوء بالفشل. وعليه فان النهوض التنموي عليه ان يتضمن في برنامجه الجانب التربوي والبيداغوجي الذي من شأنه ان يرتقي بالإنسان الذي يجعل من الإنسان القيمة الإقتصادية الأولى لتحقيق خطة التنمية وكنقطة تلاقي تلتقي عندها كل الخطوط الرئيسية في برامج التنمية. وكلما أهمل العنصر التربوي في البرامج التنويه الا وكانت النتائج وخيمة وما الازمات المالية التي تسبب فيها الإنسان الا امثلة عن أهمية الجانب التربوي في الحياة الإقتصادية.

ويمكن القول أن مالك بن نبي لخص هذا الجانب في توفير لقمة العيش لكل فم والعمل واجب على كل ساعد. وعندئذ يمكن القول ان الفاعلية اخذت معناها في الحياة الفرد بصفة عامة والمسم خاصة. وفعالية هي نفسها ثمرة التربية لأنها سلوك قبل ان تكون شيئا غير هذا. ولو أن العالم النامية طبقت في برامجها الإقتصادية المسلمتين المذكورتين أنفا وهما ان كل الافواه يجب أن يجب ان تجد قوتها وجميع الايدي يجب ان تعمل، لحلت أكبر مشكل يعاني منه الإقتصاد وهما البطالة والتضخم ولاستثمار أموالها في الإنسان .

مشكلة العالم الاسلامي ليست في الاسلام، ولكنها في عدم فهمها لحقيقته، لهدفه ولرسالته. والاسلام لم يقف يوما حجر عثرا أمام التقدم والتطور، ولكن المسلم هو الذي وقف موقف سلبي أمام هذه التحديات. والادهى والامر ان المسلمين بدل أن يقتبسوا اقتباس المتعلم اخذوا قشور الحضارة رغم انهم لم يتخلوا عن عقيدتهم ولكنهم ظلوا متدينين غير أن العقيدة الاسلامية تجرد من فعاليتها لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي. وإيمان المسلم اليوم أصبح إيمان فرد متحلل من صلاته الاجتماعية. وليست المسألة في أن نعلم المسلم عقيدته وهو لم ولن يتخلى عنها، ولكن "أن نرد الى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الايجابية، وتأثيرها الاجتماعي"³. ويرى مالك بن نبي أن حل مشكلات المجتمع يرتبط بمستوى الفاعلية الحضارية وهو ما أشرنا اليه بالحقيقة المحركة. فقد اصبحت المؤشرات الإقتصادية حول التوازن الكلي لا تكفي وحدها لإدخال السرور في قلوبنا ذلك أن السعادة لا تقاس بمقاييس اقتصادية بحتة. ويرجع مالك بن نبي أسباب التخلف في العالم الاسلامي الى عاملين اثنين:

1. ضعف الاساس المفاهيمي أي الى ضعف المنهج المتبع في الدول الاسلامي.

2. الالفاعلية في المجتمع الاسلامي.

ويعود سبب ضعف أساسنا المفاهيمي إلى عاملين اثنين:

-عامل تقني

-عامل استعماري.

ويكمن العامل التقني في القابلية للاستعمار التي لم يتخلص منها بعض افراد المجتمع لعل نفسية تعود الى ضعف الأساس المفاهيمي. وتظهر آثار هذا التخلف في الرجل المتخلف في حركاته وتصرفاته الناطقة عن أفكار لا تمت صلة بالواقع الإقتصادي والاجتماعي المعاش. ونتيجة لهذا الاتجاه الخاطئ خلص مالك بن نبي الى نتيجة مفادها ان العالم الإسلام بدل أن يتجه صوب عالم الأفكار، وجد نفسه في مواجهة عالم الأشياء، فأصبح يستهلك ما

يستهلكه الغرب وينتج ما ينتجه الغرب ولاسبيل له في ذلك سوى الاقتباس من دون جد ولا تعب. وبدل ان يتجه العالم الإسلامي نحو التنمية سلك طريق الشيئية. ويجب ان نذكر مرة أخرى أن هذا الموقف جاء اتباعا لاختياره لمنهج معين. وإضافة الى ضعف جهازنا المفاهيمي أضيف عامل آخر كان سببا في الركود والخمول ويكمن هذا العامل الثاني في قبح اللافاعلية. وجدير بالذكر أن ان اللافاعلية هذه ليست ارادية فهي عرض فقط ويمكن للعالم الإسلامي أن يتخلص منها من خلال إعادة النظر في أساسه المفاهيمي وذلك من خلال تركيب الإنسان والتراب والوقت أي من خلال توليف عناصر الحضارة. وتظهر آثار اللافاعلية في المجتمع الإسلامي في عدم استغلال كل الطاقات البشرية. ومعروف أن تطور المجتمع لا يقاس بما يملك من أشياء. ولاسبيل من الخروج من الازمات التي يتخبط فيها الفرد المسلم سوى عن "تركيب عناصر الحضارة وهي الإنسان، والتراب والوقت داخل شبكة اجتماعية قوية، يكون عنصر الدين الإسلامي فيها ذو مكانة عالية"⁴.

3. دور المعادلة الاجتماعية في تحقيق التنمية

لنعود مرة أخرى لاستقراء افكار مالك بن نبي في ظل مشكلات الحضارة وهنا يمكن الجزم كل الجزم على وجود علاقة متينة بين تحقيق التنمية والمعادلة الاجتماعية التي تخص كل فرد في المجتمع موضوع الدراسة. ولفهم المعادلة الاجتماعية لابد من الرجوع الى الحركة البرونية نسبة الى (جون براون 1800-1859). فقد كان هذا العالم البيولوجي سببا في إحداث ثورة في النظرية العلمية البيولوجية، فهو يعتبر أب نظرية الاعداد الكبرى التي طورها فيما بعد علماء آخرون. وحسب نظرية الأعداد الكبرى فانه من المحتمل حدوث أمر معين في فترة في فترة معينة من تاريخه وهو بدورة يتأثر بظروف البيئة والمحيط. والتفسير نفسه يستنبط منه قانون الاعداد الكبرى الذي يفرض نفسه في الحياة الاجتماعية والإقتصادية. وحسب نظرية الاعداد الكبرى التي أعطاها المفكر مالك بن نبي بعدا اجتماعيا واقتصاديا

في كتابه القيم "الفكرة الافروآسيوية"، كل مولود يولد الا وسوف يجد حظه مرتبط ارتباطا وثيقا بهذا القانون الذي يحدد له مصيره من يوم ولادته الى وفاته في العمل، والدراسة وفي كل حياته. وأيا كانت معادلة الشخص أي تكوينه الفكري فان حظه في الحياة مرتبط مقدما بالقانون العام أي قانون الاعداد الكبرى والبعض الآخر يسميه قانون الرياضيات او قانون الإحصاء. ويعود ذلك الى حتمية تنتج عن انتسابه لوحدة تسيطر عليها مجموعة من العوامل السلبية، هذه العوامل السلبية حسب مالك بن نبي هي عوامل الاستعمار والقابلية للاستعمار. ومعنى ذلك ان أي مولود يولد على محور طاجنا-جاكرتا-سيخضع لامحالة منذ اللحظة الأولى تحت أحكام قانون الاعداد الكبرى وبالتالي فان حظوظه في العمل والدراسة والتعليم تكون اقل من ذلك الطفل الذي يولد في محور واشنطن-موسكو الذي سيوفر له مجتمعة كل حظوظ النجاح وستكون له فرص في العمل وفي الرعاية غير مرتبطة بمواهبه ومستوى وعيه ومعرفته، بل ان حظوظه كلها مرتبطة بميزاته التاريخية والجغرافية. ونتيجة لذلك فان فعالية الفرد مشروطة مقدما بمعادلة اجتماعية وهذه المعادلة تفرض على سلوكه وتصرفاته وفكرة نوعا من الحتمية منهم الى بعملية تغيير لمعادلته الاجتماعية كما حدث في بعض الدول المتقدمة صناعيا كالبيان لثناء العهد الميجي نسبة الى الامبراطور الياباني "ميجي" وفي الصين اثناء الثورة الثقافية. والعالم الإسلامي بحاجة الى تغيير داخلي وخاصة انه أصبح خليط من بقايا موروثة وتيارات فكرية وسياسية معظمها متأثرة بالغرب بعيدة عن خصائصه، ومقوماته، وثقافته واخلاقه. ومن بين الحلول التي اقترحها مالك بن نبي للخروج من التبعية الاقتصادية ومن أجل تقويم المعادلة الاجتماعية للفرد المسلم هو طريق الحق والواجب. والعلاقة بين الحق والواجب هي التي تبني القواعد الأساسية لميادين التنمية في المجتمع الإسلامي. ويمكن ان نلاحظ ان كثير من دول العالم الإسلامي تنفق الملايير من الدولارات من دون ان تجد نفسها في مصف الدول المتقدمة. ويعود السبب في عدم الاستثمار في الإنسان الذي كرمه الباري عز وجل بالعقل. ولكن القاعدة العامة تقول أن كل

عملية تنمية لأتأخذ في حسابها الإنسان بكل ابعاده الفكرية والعاطفية تبوء حتما بالفشل. وهنا بالذات تأخذ فكرة الحقبة المحركة كل ابعادها لان تهتم بالإنسان من خلال توجيه ثقافته ورأسماله حتى يصبح قادرا على تحمل مسؤوليه ليس فقط كفرد في المجتمع ولكن كمسؤول له رسالة يؤديها في مجتمعه الي هو جزء منه ومن هنا تنتج تلك الثقة المتبادلة بين عالم الأفكار والواقع المعاش. ويمكن ان نلاحظ اليوم وللأسف الشديد علاقة مفقودة أو شبه مفقودة بين عالم الأفكار والواقع المعاش بسبب انعدام العلاقة بين المؤسسات السياسية، والإقتصادية، والمؤسسات التي تسهر على أمن الدولة وافراد المجتمع والسبب الرئيسي في ذلك هو انحلال شبكة العلاقات الاجتماعية، وانه لمن المؤسف ان تحل مثل هذه الشبكة الاجتماعية لان عواقب تكون وخيمة على العوالم الثلاثة: عالم الأفكار، وعالم الأشخاص وأخيرا عالم الأشياء. ويكمن الحل في تركيب عناصر الحضارة كما تقدم وهي الإنسان والتراب والزمن ولن يتحقق الا من خلال مركب لم يأتي به الإنسان ولكنه من عند الخاق عز وجل وهذا المركب هو الإسلام الذي من شأنه ان يعيد للإنسان حقيقة التي فقدها او فقدت منه. وقضية الإنسان في المجتمع مربوطة في تحقيق ثلاث عناصر أساسية تكمن في:

-توجيه الثقافة

-توجيه العمل

-توجيه رأس المال.

ونخلص مما سبق، ان مالك بن نبي اهتم بفكرة التوجيه بل جعل منها شرط أساسي في عملية الإقلاع الإقتصادي والنهوض التنموي. ولا يمكن لهذه العناصر الثلاث أن تلعب دورها في عجلة التاريخ وفي تحرير الإنسان من الفقر والحرمان إلا إذا تم تكييفها حول فكرة دينية كمحفز للنهضة. وبالنسبة للمسلم فإن المسألة لا تعدو أن تكون في مدى تمسكه بإسلامه وتفعيله في حياته وقدرة توظيف الدين في تعامله مع الآخرين وفي معاملاته الإقتصادية والاجتماعية. فالقضية تكمن فيما مدى التزام المسلم بدينه. وتشكل الفكرة الدينية

في فكر ملك بن نبي، مركب الحضارة أي العامل الذي يؤثر في مزج عناصر الحضارة بعضها ببعض.

1.3. توجيه الثقافة

نحن مدينون لمالك بن نبي بشكل واضح لتحديد مصطلح "الثقافة" من المفاهيم الأدبية الغامضة التي طالما أسىء استعمالها من قبل الكتاب والمؤلفين وحتى بعض المفكرين العرب والمسلمين وذلك منذ ابن خلدون (1332-1406). ويمكن القول أن الكتاب العرب كان لهم دور سلبي في تعريف الثقافة بحيث ألصقوها بالفنون الفولكلورية، والمسرح، والشعر، والغناء... وبذلك غدت الثقافة رقصاً ومدحاً بدل أن تكون سلوكاً ناهيك عن استيراد الأفكار بكل أشكالها والوانها من الغرب. ولابد أن نعترف وبشكل واضح وعلمي أن الفضل يرجع إلى مالك بن نبي في تحليل مفهوم الثقافة الذي اكتنفه الغموض لحد لا يعقل وحتى يومنا هذا بحيث لازال البعض يربط الثقافة بالأفكار. فقد جاء مالك بن نبي برؤية جديدة لم تألفها المصطلحات المنتشرة آنذاك والتي استوحت مصدرها من الفكر الغربي. والثقافة في فكر مالك بن نبي لا تعتبر علماً ولا فولكلوراً ولكنها "مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرسائل أولى في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحبط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته"⁵. فالثقافة هي التي تقوم بدور تحديد شخصية الفرد وتعطيه درجة معينة من الكفاءة والمهارة حسب المضاعف الذي يحمله كل فرد في المجتمع وكل تتمتع به الأمم فوق الأرض .

تأسيساً لما سبق فالثقافة تشمل في معناها العام على إطار حياة واحدة، يجمع بين راعي الغنم والعالم، بحيث توحد بينهما دواع مشتركة، وهي تهتم في معناها الخاص بكل طبقة من طبقات المجتمع فيما يناسبها من وظيفة تقوم بها، وما لهذه الوظيفة من شروط خاصة. وللتذكير فإن هذه السطور كتبت منذ 70 سنة في كتاب مشكلة الثقافة. ويمكننا أن

نلاحظ الحالة المزرية التي وصل إليها التعليم في جامعتنا و ثانوياتنا. وقد بينت الأيام أن مالك بن نبي كان محقاً تماماً في القول بأن الثقافة نظرية في السلوك، أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة. إن الذي يفتقر إليه المجتمع الإسلامي هو السلوك الصحيح الذي يتناسب مع مقاصد الشريعة الإسلامية. ويمكن أن نلاحظ وبكل سهولة الانحطاط والفوضى التي سادت في مؤسساتنا وفي شوارعنا وأسواقنا. فبدل من نشر الثقافة التي تعكس حضارتنا الجميلة وأخلاقنا الإسلامية رحنا نشوه صورة الإسلام وهو بريء من تصرفاتنا العمياء. والحق أن الفرد المسلم لم يعد ينتج كما ينتج أجداده وأسلافه في حقل العلم والاكتشاف. ولكن وللأسف أصبح هذا الفرد مصدر من مصادر الفوضى والقلق يدمر الحرث والنسل حيثما حل. وأصبح العالم لا يتوقع منه شيئاً لأنه وبكل بساطة فقد حضارته وبالتالي لم تصبح لديه ثقافة تحدد مفهومه، وتصوغ شخصيته وقيمه الاجتماعية ذلك أن الثقافة هي الكتلة نفسها، بما تتضمنه من عادات متجانسة وعقريات متقاربة، وتقاليد متكاملة وأذواق متناسبة، وعواطف متشابهة.

وخلص مالك بن نبي إلى أن الثقافة يجب أن يكون لها إيقاع لتلبية معايير الكفاءة في عالم يؤمن فقط بالإنتاجية وبالأرقام التي تعبر عن العوائد والمردودية. وعكس كثير من المفكرين فقد تنبه مالك بن نبي إلى مكونات الثقافة والعناصر التي تشكلها. فقد كان للمفكر الجزائري مالك بن نبي الفضل الكبير في تعريف الثقافة من الوجهة الوظيفية وهي الوجهة التي أهملها الكثير من المفكرين. وفي هذا الصدد يقول بن نبي عن الثقافة بأنها " تركيب متألف للأخلاق، والجمال، والمنطق العملي، والفن الصناعي"⁶. ويقودنا الحديث في هذا الشأن إلى علاقة الثقافة بالمحيط وخصوصاً بشبكة العلاقات الاجتماعية التي يوفرها المجتمع وكذا البناء الاجتماعي وما يقتضي من صلابة ومتانة... ويبدو ولا شك في ذلك أن العناصر الأربع التي تصوغ الثقافة لازال المجتمع الإسلامي يفتقدها بشكل مهول وخاصة الذوق الجمالي ذلك لأن الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو

الإطار الذي تتكون فيه أي حضارة، فينبغي أن نلاحظه في نفوسنا، وأن تتمثل في شوارعنا، وبيوتنا، ومقاهينا، مسحة الجمال نفسها التي يرسمها مخرج رواية في منظر سينمائي أو مسرحي. ومهما يكن من أمر، فإن النهضة لا يمكن تصورها كعملية استيراد، كما أنها ليست عملية تحديث، بل إنها مشروع كامل يمكن تحقيقه على أساس التوجه الثقافية .

2.3. توجيه العمل

إذا كانت الثقافة هي بمثابة الدم الذي يسري في عروق الحضارة، فإن ولا شك يمثل العنصر الثاني في توجيه النهضة لأنه وبكل بساطة هو الذي يخط مصير الأشياء في الإطار الاجتماعي بشرط أن يكون منتجاً. وليصبح العمل منتجا لا بد أن يحافظ على وجهته البرجماتية، أي أن يكون له هدف وغاية من البداية إلى النهاية. ومعنى ذلك أن يكون للعمل قصد واضح المعالم. والفرد لا يقوم بعمل من أجل العمل في حد ذاته ولكن من أجل الوصول إلى غاية وإلى تحقيق هدف منشود. وهنا يأتي دور التوجيه على المستوى الاجتماعي-الإقتصادي ليعطي للعمل معنى وغاية. ومعنى ذلك أن يكون العمل موجهاً بشكل دائم بحيث يصبح لديه ذوق ومتعة. مع التسليم أن العمل يشكل في النظرية الإقتصادية أحد عناصر الإنتاج الأربع إلى جانب الأرض ورأس المال والتدبير أو ما يسمى بالتسيير في عصرنا الحاضر. وقد أفرد الإقتصادي البريطاني دافيد ريكاردو نظرية كاملة حول العمل وهي نظرية القيمة-العمل. وينصرف مفهوم هذه النظرية إلى أن العمل هو مصدر الثروة. ويرى الإقتصادي البريطاني دافيد ريكاردو (1772-1832) أن العمل هو جوهر أو أساس القيمة التي تقدر على أساس كمية العمل المنتج والمتجسد فيه وبذلك يشكل العمل جوهر القيمة. كما لاحظ أن أداء العمل يختلف من إنسان إلى آخر ومن مجال إلى آخر، فساعة عمل مهندس محترف أفضل من ساعة عمل مهندس مبتدئ أو غير محترف. ويجد (ريكاردو) نفسه أمام مشكلة معقدة وهي مشكلة عدالة توزيع الثروة التي لم يجد لها حلاً نهائياً في ظل

التصور الذي انتهجه منذ البداية، والتي ستجعل منه طعاما سهلا في يدي الماركسيين، في تحليل ونقد النظام الرأسمالي. وفي تحليله للقيمة، تجاهل (ريكاردو) أمرا مهما يخص الجانب الكيفي للظواهر الإقتصادية. لقد اهتم ريكاردو فقط بالجانب الكمي الذي يخص الربح وتحقيق أقصى عائد من دون أن يقدم أدنى اهتمام بشروط العمل التي تحيط بالإنسان وخاصة عندما خلس إلى القانون الحديدي للأجور، وهذا التجاهل هيا الطريق لولادة وظهور المذهب الماركسي الذي سيعالج الأمر ولكن من منظور مخالف النظرية التقليدية. والعمل بالنسبة لمالك بن نبي ليس معطى مثل الإنسان والتراب والوقت ولكنه متغير لأنه يتم إنشاؤه عن طريق إجراء توليفة المعطيات الثلاث بطريقة صحيحة ومنظمة ليصل الى نتيجة. ويتم تحقيق توجيه العمل من خلال تجميع جميع الجهود المبذولة لتحويل الإنسان وتهيئة المناخ المناسب. وفي هذا الصدد كتب مالك بن نبي "توجيه العمل هو تأليف كل هذه الجهود لتغيير وضع الإنسان، وخلق بيئته الجديدة، ومن هذه البيئة يأخذ العمل معناه الآخر: كسب العيش لكل فرد"⁷.

لكي يكون العمل مثمرا بغض النظر عن شكله فكري أو مادي كان، يجب أن يكون موجها نحو هدف محدد وقابل للقياس مع توقيت دقيق. وإلا أصبح هذا العمل مصدر تخلق وقلق. ولا شيء أفضل من العمل المخطط والمنظم. وبعبارة أخرى، يجب أن يكون التوجيه المنهجي العمل شرطا عاما أولا، ثم وسيلة خاصة لكسب الحياة بعد ذلك، لأن هذا التوجيه- حين يتحد مع توجيه الثقافة، وتوجيه رأس المال، يفتح مجالات جديدة للعمل. وفي مقال نشر في مجلة "الثورة الأفريقية" في سنة 1967، حاول مالك بن نبي، الاستفادة بالتجربة الصينية في ستينيات القرن الماضي، صياغة هذه التجربة على شكل دالتين مختلفتين تماما بحيث ان الحالة الأولى تشير إلى أن العمل دالة في الاستثمار و أما الحالة الثانية الاستثمار دالة في العمل حيث أن t يمثل العمل و i الاستثمار .

وخلص مالك بن نبي إلى أن الحالة الأولى تشير إلى الجانب المالي الذي يطغى على المعادلة الاجتماعية بحيث تصبح رؤوس الأموال الأجنبية خصوصاً هي أساس التمويل الإقتصادي في البلاد بدل الاستثمار في الموارد البشرية. وعكس الحالة الأولى، فإن الحالة الثانية تعطي للجانب الاجتماعي دوره في تحقيق التنمية الإقتصادية. وبخصوص الدالتين المذكورتين سابقاً كتب مالك بن نبي " وهكذا نرى أن طريقتي الاستثمار تختلفان اختلافاً جوهرياً، ليس من حيث مبدأ التخطيط فحسب، بل من حيث سائر نتائجها الإقتصادية والاجتماعية والسياسية. فالاستثمار الأول يقوم أساساً على المال، أما الثاني فهو يعتمد أساساً على الطاقات الاجتماعية"⁸. ومعنى ذلك أن المجتمع الذي ينمو عن طريق المعادلة الأولى التي مفادها أن الاستثمار أساس العمل لا يستفيد إلا من جزء من طاقته، وأما الذي يحقق النمو على أساس العمل فإنه يعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية وحشد كل الطاقات الموجودة داخل المجتمع. وتأسيساً لذلك فيمكن لكل السواعد أن تعمل وكل الأفواه أن تأكل .

ومع مرور الوقت اتضح أن مالك بن نبي لم يكن مخطئاً، فقد بينت التجارب أن الافتراض وقانون التقليد ليس هو الحل الأمثل لتحقيق التنمية في كثير من الدول النامية. والجزائر التي جربت جميع أشكال نماذج النمو لم تحقق بعد الإقلاع الإقتصادي المنشود والمأمول، فعجلة النمو الإقتصادي لم تحقق بعد ما يصبو إليه المجتمع، وذلك برغم المليارات من الدولارات التي ضخّت من أجل رفع نسبة النمو الإقتصادي. ولأزال عدد المؤسسات الصغيرة والمتوسطة بعيداً كل البعد عن المعايير الدولية. ومع وجود مئات الآلاف من المؤسسات المصغرة والمتوسطة وكذا المؤسسات الناشئة، نخلص إلى نتيجة مفادها أننا في آخر المطاف بالمقاربة بالدول الناشئة مع العلم أن مؤسساتنا لازالت تنقصنا الإدارة الصحيحة والحوكمة الرشيدة. حتى الشراكة العامة والخاصة التي كثر عنها الحديث خلال العشرية الأخيرة لازالت تفتقر إلى الإطار القانوني والتشريعي والإرادة السياسية الصادقة فكم من لقاءات واجتماعات لم تفرز أي نتائج ملموسة في أرض الواقع الإقتصادي .

والقضية ليست في الحقيقة "قضية قصور في الإمكان، بل قصور في التصرف والسياسة والتخطيط"⁹. ويتفاقم المشكل عندما نقرن في أذهاننا وفي مشاريعنا قضية العمل بقضية المال فنظن أن الحل لا يكمن سوى في المال وحده بحيث يصبح العمل مقيدا بشروط مالية لا ينطلق بدونها. وقد أثبت اليابان عكس ذلك عندما انطلقت من لاشيئ ماعدا الفرد الياباني فراحت تشيد المؤسسات والمباني وتصنع التكنولوجيا الجد متطورة في شتى المجالات. ومعنى ذلك أن العمل هو جزء من المعادلة الإقتصادية للبلد والمجتمع. وبعبارة أخرى يجب النظر إلى المشكلة الإقتصادية في طبيعتها الإنسانية، أي المعادلة الاجتماعية لكل فرد ولكل مجمع. وتختلف هذه المعادلة من فرد إلى فرد آخر ومن مجتمع إلى مجتمع داخل وخارج الأمة. وعندما يفقد العمل معناه وبعده الإنساني يصبح بدون هدف وبدون مبرر. وبالتالي يصبح عقيما. ولكي يتخلص العمل من العقم الذي قد يصيبه في أي لحظة يجب أن تسير النظرية الإقتصادية جنبا إلى جنب مع النظرية السياسية "كيما تحيل المبدأ النظري إلى قانون للعمل والنشاط، فتضمه بذلك إلى دوافعه وإلى نسقه وأسلوبه. والطريقة الوحيدة التي يصبح بها المبدأ أو الفكرة جزءا من التاريخ هي أن يتحول إلى "عمل"، إلى دافع عمل، إلى طاقة عملية، إلى إمكانية عمل"¹⁰.

3.3. توجيه رأس المال

يأتي دور توجيه رأس المال بعد الثقافة والعمل وذلك في تحقيق النهضة المنشودة. ويمكن تعريف رأس المال بأنه مجموع الأموال التي يمتلكها الفرد أو الأمة سواء كانت هذه الأموال منقولة أو عقارية. وقد أصبح رأس المال المادي أحد العناصر الأساسية في عملية الإنتاج، وبالتالي في تحقيق النمو الإقتصادي. ودلت التجارب أن عملية التنمية الإقتصادية قد تعرقل بسبب ندرة رأس المال أو قلته. في حين نجد أن دولا أخرى تمكنت من الإقلاع الإقتصادي من دون رأس المال مثل ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية، ولم يتم هذا الإقلاع سوى على كتف المورد البشري المتمثل في الرجل الألماني والرجل الياباني

المتكيفان وفق مبادئ ثقافتهم وحضارتهم. وينصرف رأس المال إلى رأس المال الاستثماري ورأس المال المعنوي. ويتشكل رأس المال الاستثماري من الممتلكات المادية. وأما رأس المال المعنوي فينصرف إلى البحث العلمي وتطويره، وكل عمل فني يتطلب مهارات خاصة، فعلم الطبيب رأس مال وفن الرسام رأس مال وعدد النجار رأس مال وآلات المصنع رأس مال... ولا يعدو رأس المال أن يكون ثروة منتجة وليس مصدرا أساسيا للإنتاج لأنه حسيلة ثروة تكونت من خلال عمل قام به الإنسان في إطار القيام بعمل معين. ومع ذلك يعتبره بعض الإقتصاديين عنصرا من عناصر الإنتاج .

يعرف رأس المال بالثروة المتراكمة التي تستخدم في عمليات الإنتاج المختلفة لتوفير السلع والخدمات التي تحقق إشباع الحاجات الإنسانية. ومهما يكن من أمر فالدول النامية لا تخلو من الثروات الطبيعية، ومثل ذلك الحديد والنفط والذهب وكل أنواع المصادر الأخرى... وكل هذه الثروات تشارك في تكوين رأسمالها. وليست المشكلة مالية كما يرى مالك بن نبي ولكنها مشكلة نفسية وفنية، إنها مشكلة توجيه رأس المال. وفيما يخص المشكل النفسي كتب مالك بن نبي في مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي هذه السطور " وعندما يتمحور عالم الثقافة حول الأشياء تحتل الأشياء قمة في سلم القيم". ومعنى ذلك أن الإقتصاد يتحول من اقتصاد انتاج إلى اقتصاد استهلاك وبدل أن تستغل كل الطاقات الاجتماعية والموارد الإقتصادية التنموية تهدر الأموال ويكثر التبذير وبالتالي تكون النتيجة وخيمة وتأثيرها سلبي على الفرد والمجتمع. وقد لاحظ مالك بن نبي ظاهرة التبذير في مرحلة معينة من تاريخ الجزائر حيث كانت البلاد تعرف تحولات عميقة في بنيتها الإقتصادية والسياسة فكتب عن هذه الظاهرة أن الموظف يعتمد في تحديد رتبته في الترتيب الإداري بعد الأجهزة التي يستعملها أو لا يستعملها، ففي مكتب واحد لموظف كبير أحصيت أربعة تلفونات أمامه، وخمسة أجهزة تكييف من حوله. وبعد نصف قرن من تأليف كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي لم يتغير شيء وبقيت دار لقمان على حالها. وقد ظهر في الآونة الأخيرة ما يسمى

بالاستهلاك التفاخري لدى بعض العائلات الجزائرية أو ما يطلق عليهم بالأثرياء الجدد في الجزائر. فبدلاً من الاستثمار في مشاريع مربحة، راح هؤلاء الياء الجدد يخنقون الإقتصاد الجزائري باستيراد كل ما هب ودب وكل صغيرة وكبيرة. والأغنياء في الدول المتقدمة اقتصادياً عم الذين يشاركون في تحريك عجلة النمو الإقتصادي وفي عمليات الابتكار. وعلى سبيل المثال، لا زالت الطبقة الثرية في ألمانيا المحرك الأول والأساسي في صناعة السيارات والسبب يعود الى وجود النخبة المتخفية التي تصنع ثروتها من الصناعة والتكنولوجيا.

4. الخاتمة

خلصت الدراسة إلى أن التنمية في فكر مالك بن نبي لا تختزل في النمو الاقتصادي أو تراكم الوسائل المادية، بل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمشكلة الحضارة وبفاعلية الإنسان داخل المجتمع. كما تبين أن المعادلة الاجتماعية تشكل أساساً لتحقيق التنمية، من خلال توجيه الثقافة والعمل ورأس المال في إطار منظومة قيمية مستمدة من الفكرة الدينية. وأظهرت الدراسة أن تعثر التنمية في العالم الإسلامي يعود، حسب مالك بن نبي، إلى ضعف الفاعلية الاجتماعية وهيمنة عالم الأشياء على عالم الأفكار، إضافة إلى اختلال العلاقة بين الحقوق والواجبات.

كما توصلت الدراسة إلى أن المشروع التنموي عند مالك بن نبي يقوم على بناء الإنسان قبل بناء الاقتصاد، وعلى تفعيل عناصر الحضارة الثلاثة: الإنسان، والتراب، والوقت.

وتأسيساً لما سبق نقترح التوصيات التالية:

- ضرورة إعادة الاعتبار للبعد القيمي في السياسات التنموية.
- الاهتمام ببناء الإنسان وتوجيه الثقافة نحو الفاعلية والإنتاج.
- تعزيز العلاقة بين التعليم والتنمية الحضارية.
- تشجيع الدراسات الأكاديمية المتعلقة بالفكر التنموي عند مالك بن نبي.

5. الهوامش والمراجع

1. مالك بن نبي: 1986، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ص 32.
2. نفس المرجع، ص 63.
3. مالك، بن نبي: 1986. شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ص 55.
4. قادة بحيري: 2018، محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي، شركة الاصاله للنشر، الجزائر، ص 97.
5. مالك، بن نبي: 1986. مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى ص 83
6. نفس المرجع، ص 89
7. مالك بن نبي: 1986، شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ص 108
8. مالك بن نبي: 1986، بين الرشاد والتهيه، دار الفكر، دمشق، سوريا، ص 157
9. مالك، بن نبي: المسلم في عالم الإقتصاد، مصدر سبق ذكره. ص 83.
10. مالك، بن نبي: المسلم في عالم الإقتصاد، مصدر سبق ذكره. ص 18-19.